٤٥١٥٠٣٢١-٠٠٠١٥-٢

مريم السعيدي: ذكريات لا تمضي

مصطفى رعد
21/Mar/2015

تعيش مريم السعيدي في ماضٍ لم يمضِ بعد. توقفت عن تعداد الأيام منذ 33 عاماً، رغم أن ربيعها الخامس والستين يدنو منها سريعاً في عيد الأم. توقف الزمن عند تلك اللحظة التي فُقد فيها ماهر قصير، ابنها، ابن الخمسة عشر ربيعاً، إبان معركة قادها ورفاقه الشيوعيين، ضدّ العدو الذي خاض معركته بعقلٍ إسرائيليّ، وبلباس القوات اللبنانية في العام 1982.

لم تعد تشعر مريم لا بالبرد ولا بالحر. انكسرت الفصول أمامها من دون أن تشعر. أصبحت أقسى مع ترتيب الوقت في منزلها. بدأت طقوس الحياة اليومية وجماليتها تسقط عنها شيئاً فشيئاً، لتبقى الطقوس التي تعتاش معها يومياً، في التأقلم مع الفوضى التي تحبها.

لا يفارق ماهر أمكنة مريم. يرافقها كظلها. الصفة الأخيرة حقيقية، نظراً لإعتياد مريم على مرّ السنين في الحفاظ على قصة الشعر القصيرة نفسها، بالشكل والطول نفسه، المطابقة لقصة شعر ماهر. لا يهرب ماهر من الذاكرة، بل يحمل عنها أشياء تلك الذاكرة التي لا تنطفئ ويعبر في الحكاية. أسألها أين ماهر يا مريم؟ تجاوب بكل خفة دم: ماهر معي، أحاكيه ويحاكيني، أناديه، يرد حيناً ولا يرد أحياناً. علّمني ماهر حب البشر، وعلمني أن أبتعد عن أذية الخصم. قلت له يوماً "أنا خلقت قبلك أو إنت خلقت قبلي؟ لا أنا خلقت بعدك. إنت مدرستي".

لا شيء يثني مريم عن مواكبة هذا العصر. تعيش مريم مع كمبيوترها وفايسبوكها الذي وجدته ملتقى لمعشرٍ من الناس. أصلاً، فُقدان ماهر كان السبب في دخولها معترك المجتمع المدني. تعرفت إلى أشخاص يتشاركون القضية نفسها، قضية المخطوفين والمخفيين قسراً منذ عام 1982 وربما قبل ذلك بكثير. أصبح هؤلاء بالنسبة إلى بعضهم البعض، أصدقاء وربما أخوة. يحملون هدفاً واحداً، كلمة واحدة، ونظرة واحدة.

لا تنسى مريم ولا تتلف الأيام ذاكرتها. "كأنك تسألني عن الأمس المخزن على ذاكرة الكمبيوتر". تتحدث مريم بثقة كاملة. تعيد مشهد معركة كلية العلوم أمامها. تواجد في الكلية يومها عام 1982 أكثر من 40 شاباً من كل الطوائف، لمواجهة العدو الإسرائيلي الذي أسقط منطقة خلدة، إبان الإجتياح. دامت معارك خلدة ثلاثة أيام، قبل أن يتراجع الشيوعيون إلى خطوط الحدث – الجامعة اللبنانية.

للأسف، طلبت اسرائيل يومها من الرئيس بشير الجميل أن يساعدها لدخول الكلية، فأدخل الأخير عناصر القوات اللبنانية بثياب الجيش اللبناني، فخُدع الشيوعيون. ودارت معركة شرسة، سقط فيها من سقط، وفُقد فيها من فُقد، وتولت القوات اللبنانية التحقيق مع من بقي حياً في مبنى مهجور خلف الكلية، وقد عرض فيلم "ليال بلا نوم" للمخرجة إليان الراهب هذا المبنى، مثلما أظهر أن هناك مقبرة جماعية قرب كلية العلوم.

لم تبتعد مريم عن ماهر الذي لا يزال موجوداً في ذلك المبنى المهجور قرب كلية العلوم. أصبحت الكلية تعني لها كثيراً. قالت إنها تبرعت بكامل أعضائها إلى كلية العلوم، لتستفيد منها الأجيال الجديدة بعد وفاتها.

كان ماهر الدافع والسبب الأول لتعود مريم إلى الكلية الأقرب إليه، كلية الفنون، التي تعلمت فيها فنون الرسم التشكيلي. اتخذت من نافذة "الفنون"، لمدة 3 سنوات، مقعداً يطل على المكان الذي قالت أنه المكان الأخير الذي تواجد فيه ماهر قرب كلية العلوم.

زرعت شجرة زيتون وزينت محيطها بالورود الحمراء التي كان يحبها ماهر. رسمته في أكثر من مئتي لوحة، وجسدته أصابعها بالطين، على شكل تمثال نصفي أبيض.

استثمرت 3 سنوات من عمرها في الكلية لترسم ماهر فيها. احتل ماهر الجزء الأكبر من حياتها. استطاعت فيها تدريب عقلها وقلبها على تجسيد ماهر في الطبيعة، طوله، عرضه، كتفيه، وجهه، شعره، جسده المراهق، ظله، حركات يده، ملامح وجهه، مبسمه. رغم أن الشاب ليس إلا واحداً من عائلة مؤلفة من 5 أبناء، وزوجٌ انفصلت عنه منذ فترة، قبل أن يستعيد الله أمانته مؤخراً.

تحمد مريم الله على أنها لم تسمح للساسة أن يحرّكوا ملف المخطوفين حسبما تقتضي المصالح الإنتخابية. هي أم الشهيد، أم المناضل، أم المفقود، أم الأسير، هي أم هؤلاء جميعاً.
أسألها، مع تقديم الإعتذار قبل السؤال، ماذا لو قالوا لكِ أن ماهر قد توفي في المعركة؟ تجيب بأنها تعيش في الخيال ولا يمكنها أن تعيش خارج هذه الحدود، لأن الواقع لم يصبح متوفراً بعد.

بعد كل ذلك، وجهت مريم رسالة صغيرة إلى أمهات العسكريين المخطوفين لدى تنظيم "داعش"، قالت فيها إن حال الأمهات في رياض الصلح أخف وجعاً مما حصل معها ومع أمهات المخفيين قسراً، نظراً للأخبار المدسوسة التي حاول بعض الساسة دسها بين المعتصمين في خيمة الأسكوا منذ العام 2005، عن أن أولادنا قد رُميوا في البحر حيناً، أو تم اعدامهم شنقاً، أو تم رشهم بمادة الكلس، أو تم ترحيلهم إلى إسرائيل، أو قاموا بسجنهم في سوريا. لذلك كونوا أشداء من دون أن تسمحوا للساسة أن يتدخلوا في ملفكم.